# يختفى الطوق ويبلى الحذاء

مجموعة قصصية

دعاء فتوح

يختفى الطوق ويبلى الحذاء
مجموعة قصصية
تأليف: دعاء فتوح
مراجعة لغوية وتصميم داخلي:
أحمد سراج
تصميم الغلاف:

رقم الإيداع:
الترقيم الدولي:
إشراف عام: أحمد عبد الجواد
مشروع عابر للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

# يختفي الطوق ويبلى الحذاء

## دعاء فتوح

## قصص

بينما أنتظر بشوق اجتياح نوم هادئ يهدهد نفسي، التي عانت لليالٍ سبع متتالية من أرق قاتل بسبب رحيلك المفاجئ، بغتة أجد نفسي في مكان ضيق لا أعرفه، أجلس الآن تحت سماء بحرية تغطي العالم من فوقي وتصل بمائها المالح حتى منتصف جبيني، تسيل الآن على فمي قطرات دمع جارٍ لا أعرف مصدره، صوت الآنين المكتوم يصم أذنيّ والبحر العلوي خالٍ من أي مظهر يشي بحياة ممكنة، فقط بعض الأصداف المتكسرة تسكن في القاع دون لآلئ، أبي أنا أختبئ الآن في ركن مظلم، أنبش بيديّ أرضا رطبة، وعقلي يجتر صورا مشوشة خلفتها الوحدة التي تحاصرني ولا أجد منها فكاكا، أتعثر في نفسي، والكابوس مختبئ بالأرضية التي تجتر هي الأخرى حكايات تبتلعني ثم تلفظني ثم تبتلعني مرة أخرى..

# (١)

## في انتظار جنية الحواديت الطيبة

# جنية الحواديت الطيبة

أضع مساحيق التجميل على وجهها، الجو خانق بفعل ارتفاع درجات الحرارة، التي تبخر اللحظة وتبخرت معها سنوات عمري الخمسون، مع طبقة كريم الأساس الأولى كانت تبدو مبتسمة، كقطة منطلقة فوق مناطق بيضاء، حرة في الحلم وفريدة في مطاردة الفرائس، عاشقة للمساحات الواسعة، تسكن بلدة بعيدة أنثرها بفرشاة "الباودر" المنطلقة كحصان يقطع وديان الروح، ليصقل الطبقة الثانية.

باغتتني بسؤال:

-"لماذا تجملين وجوهنا وأنت بهذا القبح الظاهر بفعل الإهمال"؟

أجفل، ثم أبتسم بصدق لجرأتها، فقبحي طبيعي منعكس في حدقة الأعين دون إفصاح، لا أنكره ولا أسأل عنه، أجاوبها:

-"هكذا جمال القبح في إعلانه"

عائدة إلى بيتي في وقت متأخر كالعادة، أحمل كيس طعامي بيد، وباليد الأخرى أحفظ على كتفيّ شالا ثقيلا لأذوب أكثر في لزوجة الليل، تلك "الساونا" التي أحيا داخلها تعينُني على صهر كل ما أعشق وأحب داخلي، فأنا والليل نحمل نفس الملامح، ولكنني أرحب من

الليل وأبهى سوادًا، ثقب ناتئ في روحي أسقط منه على شكل خطوات أمشيها، حتى أرجع بيتي مصفاة تماما مني.

أفتح ببطء الباب فتجفل فأرة صغيرة كانت تتسكع في الصالة الضيقة، ألقي طعامي على الأرض وأبدأ في خلع الحذاء المنحول من الجوانب، أستلقي فوق الأريكة، وأمد قدميّ أمامي فألاحظ بقايا خيوط متآكلة، وأنامل خشبية نخر داخلها السوس.

أحاول النهوض لأصطدم بالإطار الضيق فوق الحائط يحمل انعكاسا لا أعرفه لوجه دمية عشرينية تضحك بطفولة في انتظار جنية الحواديت الطيبة، التي ستحولها لعروس جميلة.

أخلع شعري المستعار ليظهر رأس خشبي أصلع فوقه بقايا خيط متآكل يشكل شعيرات صغيرة متناثرة، أتحرك حتى أصل إلى علبتي المخبأة في غرفة النوم، أجرها وأدخل وأبدأ في نزول السلالم لأصل في النهاية إلى سرداب بلون الخوخ، أخطو داخله وأتأكد أن الطعام في يديّ فأجد في منتصفه بابا أطرقه ثلاث مرات كيفما اتفق، ينفتح الباب رويدا لأرى أمامي سماء وردية، وفتيات صغيرات يركضن

تجاهي مبتسمات، ملائكتي الصغار يستقبلونني بحب واحتفاء، أبتسم في خجل من ثنائهن على شكل جدائل شعري الجميلة.

أفرد الطعام فتلوك الفتيات مع كل قضمة خطوة قديمة، ينتهين من الطعام لنبدأ في اللّهو بالسحابات الوردية، وفي غفلة منهن ألطخ وجوههن بنجوم العسل البنية، فينزعجن كثيرا، أضحك وأقودهن نحو شمس المنتصف الذهبية، بفعل الحرارة يتجمد العسل فيصبحن ألواح عرائس عسلية، أبدأ قضمهن واحدة تلو الأخرى وأستمتع بطعم بكائهن المالح، أنتهي من وجبتي وأتمدد فوق قرص الشمس لأغفو قليلا حتى يأتي الصباح.

# أيقونة

أبدو يائسة تمامًا أمامها، من شدة الخوف أحوقل وأبسمل، وأقرأ المعوذتين في سري، فلا أجد غير ثقب صغير يبتلعني. لا أستطيع التنفس داخله. في عالمها مهلهلة أنا مثل خرقة الجدة القديمة، التي كانت تنظف بها فرنها المصنوع من الطوب الحراري، تدخلها مرات عدة في عز الإحماء لتضمن نظافة خبيزها، فتتآكل تدريجيًا وتبرى حتى لا يتبقى منها سوى قطعة صغيرة، تلقى في القمامة بإهمال، وكأنها لم تكن تلك القطعة العفية المتماسكة من القماش.

تأخذني إلى بئر قديمة، قالت إنني أيقونة متبتل عاجية وجب تشذيبها ليرضى عنها الرب، أنا وصحراء واسعة تلبس تاجا من قمر يعلو سماء تكاد تُلمس إذا وقفت على أطراف أصابعك، أحاول أن أجرى، ولكن الرمال تثقل قدميّ وقلبي يتوثب غير عابئ بالضغط عليهما أو حتى تعثرهما.

تقف أمام البئر وتصلي: "إلهنا امنحنا دفء ليلتنا الباردة وارزقها صبرًا يقيها شدة الألم عند تحولها".. عن أي تحول تتحدث تلك الخرقاء؟!

هل أسمع تراتيل صوت ملائكي تخرج من البئر؟
هل تخرج حوريات يضربن بزعانف عملاقة، ويعزفن؟
هل تغني شجرة لوز؟

عصافير خضراء، بمناقير وردية تحمل عقودًا من زبرجد وياقوتات صغيرة، الهواء يحملني بلطف خفيٍّ، ما الذي ينبت خلف ظهري؟ ألم لا أستطيع تحمله، أنظر لأعلى، السماء حقلا من الفراشات اللاتي تبكين بشدة من أجل دموع أحتاج ماءها لأتطهر؟
أبكي بحرقة وأطلب منها التوقف لا أستطيع تحمل كسر عظامي، أتآكل مثل الخرقة تمامًا، أدخل في نفس الفرن، ولكني لا أجد اللهب أجد عيونًا نارية تخرج من قلبي، تترصد خبزًا أبيض اللون لتحرقه.. أنتحب من شدة الحرارة، ولا تكف الفراشات هي الأخرى عن الانتحاب حتى تطفئ العيون النارية، التي تزداد سوادًا من شدة نارها.

أشعر بجفاف في حلقي وطعم رمل مالح، لا أعرف أين أنا وما الذي حدث، أحاول فتح عيوني، ولكني لا أرى أو أسمع شيئا، أحاول البحث عن أطرافي حتى أستند على الأرض لأقف، ولكنني لا أجد يديّ، أتحرك فوق الرمل على بطني وأزحف بمساعدة ذيل؟!

# سر الفستق الأحمر

تنمو داخلي تلك الحية، التي أخاف من استحواذها على عالمي الصغير من الأحلام، فكلما أغمضت عيني وجدت أني أسعى في أرض غريبة صحراوية قاحلة أبحث عن طريقة توحدني مع جذور صبار ضاربة تحت الرمال للعثور على مياه تختبئ تحت موت يلف الحياة ويعتليها، أبحث عن تمدد يكسبني شرعية البقاء وصلابة ومرارة القدرة على الاستمرار، فالحياة هبة تأتي من لحظة فارقة من التشكل، كما يحلو لنا حتى لو لم يتعد الأمر مجرد حلم عابر.

ذات ليلة مضيئة شغف قلبي إلى رؤية الجنة وزيارة بيت الله الحرام، فقررت قراءة قرآن والنوم على تلاوة قارئ عذب الصوت حتى يستحضر قلبي في نومه قوة السفر إلى النور هناك، ولكن يأتي النوم بما لا تشتهي نفسي، التي تحولت إلى تمثال ينقر رأسه طائر بني اللون يبني عشًا ليسع بيضاته الصغيرة الذهبية، أنصت لحزن قلبي فأسمع بدلا منه صوت ضحكة فرخ صغير داخل البيضة يوشوش أخاه بسر الفستق الأحمر.

يحكي لأخيه أنه هناك في أرض بعيدة بيضاء تعيش مزرعة من الدجاجات الوردية اللاتي يكرهن بعضهن البعض بسبب عشقهن لديكهن الأخضر، الذي يختال عليهن بجمال عرفه الأزرق وصوته العذب، هو يؤذن في قلوبهن كل صباح.

وذات ليلة قلقت دجاجة صغيرة من نومها فوجدت ديكها المختال يقوم من بينهن قاصدا زاوية المزرعة البعيدة، راقبته فوجدته يحفر تحت الأرض ويحضر حبات فستق حمراء يضعها في إناء الطعام والشراب، الذي يأكلن ويشربن منه كل صباح، ثم يعود ليغط في نوم عميق.

ولما جاء صباح اليوم التالي أذن الديك كالعادة فقامت الدجاجات وشربن وأكلن ماعدا الدجاجة الصغيرة التي قررت أن تتحامل على العطش والجوع لتفهم سر الفستق الأحمر فلاحظت مع مرور الوقت وسطوع شمس الصباح أن الديك الذي يختال عليهن بلونه الأخضر وعرفه الأزرق الجميل ما هو إلا دجاجة وردية مثلهن جميعا!!

ومن هول صدمتها لم تستطع الدجاجة الكلام، جلست وحدها تفكر محتارة في ماذا تفعل، كيف تخبر باقي الدجاجات بما رأت؟ فقررت أن

تنتظر إلى الغد ثم تسكب الماء وتكب الطعام قبل استيقاظهم حتى يكتشفوا بأنفسهم مع شروق الشمس حقيقة الديك النصاب، وعندما حل المساء ورغم تعب الدجاجة من العطش والجوع وقلة النوم، انتظرت حتى نامت الدجاجات، وقامت الدجاجة المتخفية في شكل الديك من بينهن وذهبت إلى نفس الزاوية البعيدة وحفرت وأحضرت حبات الفستق ثم وضعتها في الطعام والشراب وعادت لتغط في نومها، وأثناء ذلك لم تحتمل الدجاجة الصغيرة تعب يومها فنامت ولم تصحُ إلا على صوت الديك، الذي بدا صوته عذبا وجميلا في أذنيها، تحاملت على جسدها، الذي بدا هزيلا وضعيفا من شدة الجوع والعطش وقامت فوجدت أن الديك الذي تحول بالأمس إلى دجاجة وردية مثلهن جميعا تغير شكله الآن وتحول إلى ديك ذهبي بعرف وردي!!

احتارت الدجاجة أكثر فأكثر، الأمر يصعب تصديقه وعقلها أصبح واهيا ما بين ما حدث وما لم يحدث، هي هنا في لحظة فارقة من العطش والجوع والخوف والحمّى التي أصابت جسدها من شدة الحرارة، يتصارع عقلها ويشتبك في خيارات كلها أصعب مما تحتمل.
هل تنتظر يوما آخر، وهل تستطيع أصلا الانتظار؟

كيف تحول شكل الديك من الأزرق والعرف الأخضر، إلى دجاجة وردية مثلهن جميعا، ثم الآن إلى ديك ذهبي بعرف وردي؟

راقبت الدجاجة المشهد من حولها أكثر فأكثر، فوجدت أن الديك يشرب من نفس الماء ويأكل من نفس الطعام الذي وضع فيه الفستق الأحمر مثل بقيتهن، فقررت أن تأكل وتشرب هي الأخرى ثم تنتظر، وفي صباح اليوم التالي قامت الدجاجات من نومهن...

انقطع الفرخ فجأة عن تكملة الحكاية لأخيه ونظر إلى قلبي المتوثب داخل التمثال لسماع باقي الحكاية وسألني وهو يضحك، هل ذقت مرة طعم الفستق الأحمر؟

# حكاية الوزغة الإنسية

## (١)

تنتظر كل ليلة تلك الجنية الطيبة، التي جاءت لـ(بينوكيو) وحولته من طفل خشبي إلى إنسان، هي أيضًا روحها من الداخل روح إنسانية لا تنتمي إلى غطاء الوزغة[١] الخارجي، الذي يغطيها، تعرف أنها منبوذة بسبب شكلها المقبض وبسبب ما أشيع عنها، فهم يقولون أنها نفخت في النار على النبي إبراهيم، ولكن كيف يصدق الذين يؤمنون بتلك الأكذوبة أنها تقدر على تحدي أمرا إلهيا، فتنفخ لتؤجج نارًا قال لها الله عز وجل كوني بردًا وسلاما على إبراهيم؟

تقرأ وردها في الفجر وتنام نومًا عميقًا، فيأتي ضوء النهار وفي كم جلبابه جنية عجوز تريد شربة ماء، توكز ذيلها وتوقظها من أحلام معتادة عن التحول والارتقاء، تنتبه على سؤال العجوز المباغت:

"أتريدين التحول لإنسية"؟

ترد بلهفة: "نعم"

تصمت العجوز وتطأطئ رأسها قليلا: "على استعداد للتضحية؟"

"بماذا أضحي؟"

---

(١)الوزغة هي البرص.

تبتسم العجوز: "بذيلك الصغير"
يشرق وجهها وتوافق الوزغة بفطرتها دون تفكير.

(٢)

ضوء الشمس المكثف على جسدها العاري الملقى وسط الصحراء، يترك بصماته على شكل دوائر حمراء بدأت في الانتشار، رأسها ثقيل بالأحلام الجميلة، التي تحولت فيها لصبية عاجية خرجت لتوها من بطن بئر أسرار العجوز الطيبة، تفتح عينيها ببطء وتسند روحها على إحساس خلاب بأنامل بشرية تتخلل شعرا مسترسلا فوق كتفين بَضين، تقف على قدمين غير مصدقه، هل تحلم؟، هل تحولت بالفعل لصبية جميلة؟

عري جسدها الواقف بدأ في شكشكة روحها والصحراء ممتدة أمام بصرها خالية من أية مظاهر للحياة، تغمض عينيها وتفتح بصيرة داخلية فطرية تدفعها للانكفاء على وجهها، تحضن الرمال الساخنة وتغوص متحسسة طريقها إلى الجذور الضاربة تحت الأرض، هي تعرف الصحراء مثل كتاب سطر على الجبين، هي ابنة الصحراء المورقة من الداخل، تنساب من بين ذرات الرمال للعمق الرطب الجميل، ترتوي من الجذور المائية، وتتحرك باتجاه العمار، كحورية تسبح تجاه قريتها وسط بحر تألفه وتعرف خباياه.

## (٣)

## بعد مرور عدة أيام

متشحات بالسواد والكآبة تبكي النسوة أبناءهن ورجالهن، الذين يذهبون واحدًا تلو الآخر، فمنذ هبطت على القرية غجرية جميلة تحول مع وجودها طقس القرية، البارد في طبيعته، إلى طقس صحراوي جاف، وأصبح كل ليلة يُسْحَر رجل أو صبي يتجول في النهار ناعس العينين غائب الحواس كإشارة لم ينتبهوا إليها في البداية، ومع تكرارها عرفوا أن هذا الناعس هو ضحية الغد، الذي سيتسلل من فراشه ليلا، ليجدوا جسده في الصباح مسجىً ومنتفخًا كجوال ممتلئ بالرمال.

قررت النسوة متكسرات الأجنحة اللجوء إلى الساحرة العجوز، التي تسكن في الجبل الأسود على أطراف القرية لطلب المساعدة، وعند وصولهن لمدخل الجبل وجدنها تجلس في انتظارهن بضحكة خبيثة، وبمكر العارف بالإجابة سألتهن: "أتردن خلاص رجالكن"؟

أجبنها: "نعم"

ردت عليهن بود: "عين من كل واحدة منكن مقابل خلاصكن"

في عقل النسوة منكسرات الأجنحة لم يكن هناك حل آخر للأزمة فوجب عليهن قبول شرطها بمنطق (نصف العمى....).
قالت العجوز بسعادة: "الغجرية ما هي إلا وزغة وجب عليكن قتلها، وبعد قتلها أحضرن جثتها إليّ حتى أبطل اللعنة".

تحركت النسوة صوب كوخ الغجرية تشيعهن بسمة العجوز وزهوها بذكائها في غزل خطة محكمة تمكنها من استئناف بقائها واستعادة شبابها بمساعدة مصدر التجدد الكامن في ذيل الوزغة الحمقاء، وبحر معرفة عيون النسوة البلهاء، تلك النسوة اللاتي لم يترددن في قتل النائمة الوديعة الحالمة بجمال الإنسانية ورحابتها شر قتلة.

(٤)

في بطن الجبل الأسود جثة الصبية ملقاة على الأرض وفي الناحية المقابلة لها من ناحية قدميها وضع الذيل، الذي التفت حوله عيون النسوة على شكل دائرة استلقت داخلها العجوز وهي تعزم وتتمتم ومع كل تمتمة يتفتح تحت ظهرها الذيل، وتبكي العيون بماء وردي اللون يحفر في الأرض بئرًا عميقة لتبتلع الجميع.

في منطقة تعرف طريقها للحياة داخل صحراء العالم الخالي ظاهريا من الحياة استدعت الوزغة ذيلها، الذي ينتمي إلى روح فطرتها القوية، فصرخت العجوز وتلوى جسدها مع تصاعد صوت تمتمة ابنة الصحراء والليل والفطرة، تفكك جسد الوزغة المكون من رمال الصحراء بفعل ماء البكاء، حطت ذرات الرمال على جسد العجوز الذي توقف نبضه، تتشرب الذرات على مهلٍ حكمة روحها، التي اكتسبتها لقرون من الرجال، الذين تغذت على أرواحهم المترسبة في روحها، وكلما كثر نحيب العيون ازداد عمق البئر، والتجربة في روح الوزغة، التي تعلمت تدوير ذراتها المكثفة في الماء لخلق أمواج ترفعها للخروج من البئر، في المرة الأولى دارت فتحولت إلى سمكة ملونة جميلة تسبح في بحر فضي، تدور أكثر فتتحول إلى فراشة تحط فوق الزهور، ثم تدور وتدور لتصبح الفراشة عصفورًا مغردًا فوق أغصان وارفة، ثم يتحول العصفور لقطة شقية تطارد بكرة خيط صغير ضاحك، تدور وتدور وتدور في رحلة صعودها تنتشي من الدوران ثم التحول ثم الارتقاء نحو النور.

# ضوء القمر

أختبئ منها في درج خفي، أعرف أنها تبحث في كل ركن من الغرفة عن شمسها المختزلة في القرص الصغير الذي يحتويني، لكني الآن متعبة ومنهكة، فكل مرة تراني تتفتح عينيها كوردة تستقبل صباح لم تره من قبل، تندهش فتبتسم ثم تجهش بالبكاء، أشفق على ملامحي، التي طمست وبدأت تتوارى خلف تلافيف عقلها، الذي يصطحبني كل ليلة فوق سحابة جديدة من الخيال.

ذات يوم فتحت كوة صغيرة في سقف غرفتها واعتقلتني هناك لسنوات في أحداث عشق ملتهبة مع جار يصغرني بمئات الآلاف من السنوات، فقط لأنها تراه ينتقص إلى خبرة الفراش الدافئ، التي تحتاج إليه لتتكاثر ذاتيًا عن طريق الانشطار، أنشطر معها لأصبح ذرات لا ترى إلا في عينيٍّ ضرير يقودها إلى الانتشاء على صوت موسيقي (سوناتا ضوء القمر).

تبحث عني فتفرغ روحي العالقة في طيات ملابسها، التي كانت تتراص بدرج دولابها المرتب، تقذفني دون وعي بين سماء سريرها وبحيرات أرضية غرفتها الطينية، أتآكل فوق السرير وأموت، ولكنني

أزدهر تحت الأرضية في عالم سفلي أتشكل فراشة تطير تجاه بركان مضيء، أرقص كما لم يرقص أحد من قبل، رقصة ميلادي، هنا أجد نفسي وسط نيران البركان جميلة، محترقة، لكنني بهية بشكل فريد، أرقص وأوزع اللهب، يجف ماء الأرضية فتتشقق ثم تلتهب تحت قدميها فترقص هي الأخرى هربًا من شدة الحرارة، ترقص وترقص وترقص وترقص وترقص.. و.. و..

# كابوس الحكاية

الأقلام أمامي تحرضني على الكتابة هم يعلمون أنني أحب الحكي ولكنهم لا يعلمون أن الحكي يحتاج إلى أذن تصغى، وليس إلى بضعة أوراق وأقلام تتكئ على سطح المكتب بتكاسل قطة ساقطة. أكره الحيوانات الأليفة.

أكتب..

في صغري حلمت أنني أربي صقرا أسميته "ماء" ليتساقط عليّ في أوقات الجفاف، حلمت أيضا بتربية نمرة صغيرة حتى تبتلعني عندما تكبر، نحتاج أحيانا لبناء نهايات ممكنة قبل البدء، فالنهاية لا تتحكم في المسار المؤدي إليها فقط تربت بحنو على روح الحكاية. أمسك بالورق الملون والأقلام البيضاء والسوداء، فتتشكل أمامي لوحة شطرنج عملاقة تقف عليها الأوراق كقطع تم إعدادها للحرب بعناية، القتلى بيادق صغيرة لم تجي من الأساس حتى تنعي موتها الوشيك باقي القطع الصماء، فلن يرتقي أحد البيادق ليصبح حصناً أو ملكة جميلة..

الحبس والحوائط الأربعة التي تحيط بيدي جعلت الرؤية أكثر مباشرة من اللازم، الشطرنج لعبة فاضحة تدل على الحرب والعقول الفوقية والقطع التي تخلو من الروح وتتحرك بآلية لهلاكها الحتمي. أعتقد أنني سأجرب أقلاما بنية اللون أغرسها كأوتاد داخل ورقة خضراء، جبل شاهق مسنن بالأعلى والقطة الغبية التي أكرهها حقا تحاول الصعود، ما هذه الفوضى والدماء المنسابة من قمة (الجبل/ القلم)، الأخضر القاتم بالأسفل تحول إلى لون أحمر قانٍ، فالأوراق الحمراء تشكل من الدماء المتخثرة زهورا لزجة.

العطن ينتشر في الصورة، هم يدفعون أموالا طائلة لحبس فئران صغيرة مثلي في غرف محكمة، متعة أن تراقب حافة الجنون التي تزحف على وجه الضحية، حتى تمزق ملابسها وتغرس أسلحتها في أنحاء جسدها، يريدون رؤية مسيح مصلوب بأوراق البنكنوت على صليب من ورق وأقلام صدئة. رائحة العطن تغلف الصور الجديدة أراقب نفسي وهي تتحول إلى (عنكبوتة) ضخمة تنشر خيوطا بيضاء لبناء شرنقة كحصن يؤويها، يبتلعني البياض الذي ملئت به اللوحة، فالورقة أصبحت ثلجية وأنا محتجزة بالداخل، السجين الجديد ينظر للورقة البيضاء بحب أعرفه، حب لرائحة الدم المخبأ في الأوراق البيضاء والأقلام الشفافة الرقيقة. يمسك بالقلم والورقة التي تبتل

الآن من دموع صقري ونمرتي وجبلي وزهوري وقطع الشطرنج المكسرة.. تلك هي اللعبة إذن نحبس جميعا في الغرفة الواحد تلو الآخر ليقتل بعضنا البعض بأقلام مسنونة وخيالات خرساء.

أفتح عينيّ بصعوبة، أحاول فعليا الخروج من الكابوس، العرق يبلل جبهتي ورأسي يعلوه أصداف الأحلام الرطبة، أرتعش وأحاول الوقوف على قدميّ، أبي أنا في حاجة ماسة للاعتراف، لم أكن أبدا كما تظنني، طفلتك الوديعة البارة كنت وما زلت خليطا شيطانيا يحاول التمسح بأذيال الملائكية المجحفة، أبتسم كل صباح لحكاية قديمة أكون فيها قوية ومتغيرة، فالوقت قصير وأنا أحب الحياة، لذا كنت أهرب كل ليلة لحكاية قديمة/جديدة، أبي سأحكي لك عن تفاصيل مخجلة وحزينة فكل فتاة كنتها كانت رغم كل شيء تحبك، سأبدأ الآن في الانتشار على شكل كتل نورانية تتفكك في الهواء، لتحيطك علما..

## حكاية "ألفباء" ابن "ياكوش الأحمر"

الشتاء جاء دون سابق إنذار، أخلف مواعيده، واختار يوما كنت متخففا فيه من كل شيء لأنني أكره ثقل الصيف وألجأ فيه إلى الهرب حتى من الذكريات، التي تصبح في غاية اللزوجة وتختلط بالعرق والأتربة فتولد لديّ الكآبة والحزن، أكره في الصيف حاجتي للاستغناء حتى عن دمائي فهي تلهب وريدي، أبحث الآن عن ذلك اللهيب الذي تحول إلى ذكرى.

في تلك اللحظة بالذات ترتعش يدي ببرودة الحاجة وهي أجمل هبات الشتاء العزيز إذا جاء في موعده، أما أن يأتي هكذا فيقتلوني لافتقادي لكل ما استغنيت عنه بالأمس؟!

لم أتعود أبدا على البكاء في الشتاء، والماء الدافئ المنساب على خدي يختلط الآن بهواء بارد يشعرني برجفة لا أقدر على مواجهتها، اللّٰهُمَّ ابعث لي بشرارة ذكرى قديمة لأتدفأ.

في منطقة منزوية في عقلي قليلا بدأت تنجلي صور مشوشةعن مملكة قديمة من ممالك الجان، تقع على قمة جبل "الزمرد والحكايات"، يطالعني وجه جني حكيم طيب اسمه "ياكوش الأحمر" ويقف أمامه ولده الوحيد "ألفباء"، يبدو على الولد سماحة وجه أبيه وتلمع عيناه

بذكاء أصحاب الفضيلة والعلم، إلا أن ذلك الذكاء يختلط ببعضالساذجة والطفولة، أسمع "ياكوش" وهو ينصح ولده قائلا:

- يا بنيّ لا تعطي معروفا إلا لأهله، وتجنب مخالطة الغرباء، وكن حذرا لأن هناك جنس آخر من مخلوقات إلهنا العظيم مكلف لأنه يفكر مثلنا، يسمى بالبشر، فإذا رأيتهم صدفة، أرجوك يا بنيّ لا تحاول التحدث معهم أو التعرف عليهم.

ينظر "ألفباء" لأبيه بدهشة المفاجأة، ويسأله:

- إذا كان ذلك الجنس مكلف ومفكر مثلنا، فلماذا لا نختلط بهم فنتعلم من فنونهم، ويتعلموا من فنونا، فالعقل يسبغ على العاقل حكمة ووقار، وتكون ثمرة إعماله عادة علم نافع.

كان "ياكوش" يحب ولده كثيرا ويعرف خطر التجربة الضيقة المختلطة بحبٍ للاكتشاف والتعلم، إلا أنه على غير العادة لم يحاول شرح أسبابه واكتفى بطرح النصيحة دون تفسير لها، ثم رحل.

جلس "ألفباء" يفكر في غرابة كلام أبيه، الذي يعد نوعا من أنواع الازدواجية والشطط، فهو من علّمه أهمية مساعدة الجميع ومحبتهم، وقيمة المشاركة البنّاءة، كما علّمه العطف على كل الأجناس غير العاقلة التي تحيط به، ورعايتها لعبور حياتها القصيرة ببساطة

وسعادة وهدوء، فكيف ينصحه بعد ذلك بتجنب مساعدة جنس آخر خاصة وإن كان مفكر وعاقل؟

انشغل الولد الطيب لأيام بخيالات مختلفة عن شكل وطبع ذلك الجنس، فتارة يتصور أنهم كائنات حجرية لديها قرون طويلة ترتفع حاملة لعقل دائري ومسطح، وتارة أخري يراهم كائنات صغيرة تنتشر على وجه الأرض مثل زبد ينتشر على سطح بحر..، وذات يوم من الأيام وبينما يغرس فسيلة في أرض حديقة منزله لمست يده ثقبا خفيا في الأرض، فوجد نفسه بغتة وسط جماعة من أبناء جنس غريب لم يشاهده من قبل، ولشدة خوفه همّ بالهرب فتعثّر في قدم أحد الجالسين فوجد أنه لم يشعر بوجوده، ففرح كثيرا لنجاته وبعد لحظات عرف أن أولئك الغرباء هم من جنس البشر، فوقر في قلبه استغراب وريبة من أمر أبيه، كيف يتجنبهم ويهرب منهم، وهو يراهم من حيث لا يرونه؟

فقرر الجلوس والاستماع لحديثهم، الذي كان في غاية العذوبة والجمال، يقطر صدقا ويرسم آمالا عريضة لمستقبل مشرق عند انتهائهم من بناء برج أسطوري أطلقوا عليه اسم "بابل" ليتمكنوا

بالارتقاء عليه لاكتشاف أسرار معرفة أهل السماء واستجلاء علمهم الأزلي حتى يستطيعوا الخروج من أزمة جهلهم بالمستقبل ومحنة ظلام الغيب.

ولأن "ألفباء" كان شغوفا بالمعرفة وقع في قلبه حب خالص لفكرة اكتشاف الغيب والاطلاع على أسرار أهل السماء، رغم جهله لطباع وسلوك الجنس البشري، لكنه استشف تميزه من سحر الكلمات التي تفوّه بها زعيمهم، فاقترب أكثر ليطلع على خطتهم في بناء الأساس، فوجد أنها خطة هشة تفتقد لخبرة أبناء جنسه الماهر في فنون العمارة والبناء، فأضاف بعفوية على الأوراق بعض الخطوط والمواد التي ظهرت فجأة أمام الحاضرين، فتفرقوا هلعا وخوفا، فأسرع الولد الطيب يحدثهم ويهدئ روعهم، وأخبرهم بأنه أحد أبناء عالم آخر يسكن في بعد أخر يسمى عالم الجان، وأنه يراهم من حيث لا يرونه، إلا أنه أعجب كثيرا بفكرتهم وقرر الانضمام إليهم ومساعدتهم فجنسه بفطرتهم بنّائين مهره.

وبفطرة البشر الطيبة اطمئنوا لكلامه وقرروا مصاحبته، وقبول مساعدته والاستماع إلى نصائحه التي أظهرت الأيام صدقها، وبعد

عام واحد اكتمل بناء برج "بابل" الأسطوري، وفي ليلة الاحتفال الذي يسبق ارتقاء البشر إلى السماء أعلنوا فخرهم بأنهم في الغد سيقومون بقطف ثمرة مجهود عملهم الفردي الذي أنجزوه دون مساعدة من أحد...

صدم "ألفباء" ولم يستطيع سماع باقي الخطبة العصماء واكتشف خطأه واستوعب حكمة والده وأسباب نصيحته بوجوب تجنب مساعدة البشر، لأن ما حدث على أرض واقعه كان عكس ذلك!

ففي اليوم الأول للعمل تحدث البشر كعادتهم التي لم يكن يعرفها الجني لنصف اليوم ثم عملوا بجد وإخلاص في نصفه الأخر، حتى تعبوا وذهبوا إلى أسرتهم للنوم والراحة، ولأنه لا يعرف ذلك التعب، ولم يجرب يوما هذا الشعور السحري بالنوم سهر وحده ليلا يعمل في إكمال بناء الأساس، فأصبح البشر وتوجهوا لقاعدة البرج فوجدوا أن الأساس أوشك على الاكتمال، ففرحوا كثيرا وهنأ بعضهم البعض على ذلك المجهود الجبار الذي مكنهم من انجاز هذا الجزء الكبير في هذا الوقت القصير، فالبشر أصحاب ذاكرة ضعيفة، وكلما مرت الأيام زاد البناء بالارتفاع بفضل مجهود الجني غير المرئي، وقل عمل البشر

الذين انشغلوا بالثرثرة، وظهر أنهم أيضا يمتلكون مع ذاكرتهم الضعيفة كسلا يصاحبه كبرا يحبب إليهم مدح ذاتهم وفرحها بحمدها والثناء عليها بما لم تفعل!

جلس "ألفباء" مرتبكا وحزينا لا يعي طريقة تفكير أولئك البشر، ولا يعرف لها حكمة مرجوة، وبينما يفكر ويحاول فهم أسباب فعلتهم والتغلب على صدمته وحزنه، سمع صوتا سماويا يقول له:

- لا تحزن أيها الجني الطيب ولا تفكر كثيرا فأنت فعلت الصواب على كل حال، وعملك كان رائعا، والسماء تحبك، وتكافئك بالاطلاع على سر الغيب، أنت كنت تعمل بجهد كل يوم وتعرف يقينا أن البناء سيعلو في الغد بقدر عملك، لمعرفة الغيب لا تحتاج ارتقاء برج أو الاطلاع على أخبار السماء، خذ حجرا واحدا من أساس البرج وأرحل في اتجاه شجرة اللوز وستجد هناك ثقبا يعيدك إلى أهلك الطيبون.

لم يصدق "ألفباء" أذنه إلا أنه أحس بحكمة تلك الكلمات ولأنه كان ممن يسمعون القول فيعقلونه ثم يتبعون أحسنه، فأخذ حجرا عزيزا على قلبه من أساس البرج ورحل تجاه شجرة اللوز ووجد الثقب

فلمسه وأذابه واقفا في حديقة منزله وفي يد من يديه الفسيلة التي لم يكن غرسها بعد، وفي اليد الأخرى حجره الغالي دليلا على صدق رحلته التي اكتشف أنها لم تكن في بُعد عالمه إلا كطرفة عين.

ترك "ألفباء" الفسيلة وركض يبحث عن أبيه، الذي وجده في مجلس علم مع بعض سادة مملكة "الزمرد والحكايات"، فدخل عليه وهو يلهث وقص عليه كل ما مر به دفعة واحدة، ثم وضع أمامه الحجر الذي يدل على صدق روايته، فاندهش الحاضرون من تلك الحكاية العجيبة وقرروا بعث رسول من مجلسهم ليطلع على أمر البشر ويعرف ماذا حدث لهم.

ذهب الرسول إلى البقعة التي وصفها "ألفباء" ولكنه لم يجد أية أبراج، أو حضارة أو حتى مدن، فطاف يجوب الأرض التي تناثر أهلها في بقاع شتى، وكل مجموعة من أهلها تختبئ مع بعض الأحجار التي تنام عليها وتبكي وهي تهمهم بأصوات غريبة، وعند أخر نقطة في الأرض وجد رجل حكيم يتكلم بلغة سليمة، فسأله الرسول عن أسباب شتات البشر ولماذا فقدوا القدرة على الكلام بلغة مفهومة، فقص عليه الحكيم، أنه منذ ١٠٠ عام اجتمع البشر وقرروا أن يبنوا برجا

عاليا ليكتشفوا علم أهل السماء الأزلي بالغيب، وأنهم في يوم الارتقاء وجدوا حجرا ناقصا من أساس البرج فتفرقوا حول ماهية السارق واختلفوا فيما بينهم وتقاتلوا وركض كل واحد منهم بحجر من أحجار الأساس فانهار البرج عليهم، فأخذ الذين نجوا أحجارهم وهربوا لمناطق شتى، وجلس كل واحد منهم يبكي ظلم السماء وقسوتها، وظلم أخيه الإنسان، ومن قلة كلامهم لأنهم تجنبوا بعضهم البعض تبلبلت ألسنتهم وأصبحت تهمهم بأصوات غير مفهومة.

فعاد الرسول إلى المجلس وقص عليهم ما سمع وما رأى، وفي أوج دهشتهم من غرابة ما سمعوا دخل عليهم رسول من حاكم مملكتهم يبحث عن "ألفباء" ليمثل أمامه في الساعة والتو، وعندئذ لمست دون قصد كوب شاي كان أمامي فانسكب على ملابسي الخفيفة التي تصطك من البرد.

(٢)

# حكايات الخبز البائت

# تواصل

## (١)

مرآة الحمام تعكس ظهره العاري، تتأمل جمال الانحناءات من موقع اختبائها المعتاد، فكل يوم تقريبا تحضر التليسكوب (الجائزة التي حصلت عليها لتفوقها في درس العلوم)، وفي فضائها تراقب دخوله تمام الساعة الرابعة صباحا، كالعادة يخلع ملابسه على مهلٍ كراقص "استربتيز" يتفنن في إمتاع جمهوره الجائع للإثارة، تضغط على أسنانها تستمتع وتنتشي هي الأخرى على مهلٍ تهدهد نهديها وفخذيها المكتنزين.

ينهي حمامه ويلف المنشفة على وسطه، يخرج حتى يصل إلى غرفة النوم يتساقط منه حبات الماء المتلألئ على جسده الأسمر اللامع، فيجد زوجته تغط في نوم عميق، هو لا يعرف من أين تحصل على هذه القدرة الجامحة على الاسترسال في النوم، يرتدي ملابسه على عجل ويغادر بعد أن يطمئن على استقرار قلمه (الجائزة التي حصل عليها لتفوقه في درس الجغرافيا) نائما في جيبه.

يدون في دفتره: "في تمام الساعة الخامسة والنصف تعكس مرآة الحمام صدرها العاري، أتأمل تكور ثدييها الممتلئين بالدهشة والعذوبة من موقع اختبائي المعتاد، الانحناءات المؤدية إلى أسفل بطنها توحي بطريق مقدس يُولج إلى محراب وجب التبتل فيه بشغف حتى ينطفئ شبق روحي المتعبة والمرتجفة من الاختباء".

يذكر جيدا لحظة رؤيته الأولى لوجهها الملائكي، عشق خجلها وارتجاف يديها غير المجربتين الخاليتين من بصمات غيره، فكرة مغرية ترضي غروره أن يكون هو صاحب البصمة الأولى، ولكن لحظات الشغف النوراني، التي تمناها بعد الزواج تبددت بسبب اصطدام شهوته وجموحه بخوفها وخجلها، مما جعل لقاءات الفراش روتينية تخلو من التأوهات المستجيبة، ولكنه يعرف في خيلاء سطوته على جسدها وقدرته على إمتاعها ثم ارتوائها.

يسجل تليسكوبها لحظة نزول الماء على جسدها العاري، وهي تغسل لحظات مسروقة وذنوب لا تغتفر، ترتجف وتبكي، لا تعرف لماذا لا تستطيع السيطرة على جسدها الجائع للحب، للكلمة الخادشة من زوج حبيب، كيف لطفلة خجولة ليس لديها الرغبة في اللعب، أن تكتشف أن في منطقة رمادية بالداخل امرأة تواقة للعب؟

(٢)

"اللّٰهُمَّ ارحمه برحمتك فإنه لا إله إلا أنت الحي، اللّٰهُمَّ تقبله عندك من الصالحين فإنه لا إله إلا أنت القيوم، اللّٰهُمَّ باعد بينه وبين خطاياه فإنه لا إله إلا أنت الملك، اللّٰهُمَّ اغسله بالثلج والماء والبرد فإنه لا إله إلا أنت القدوس، اللّٰهُمَّ تجاوز عن سيئاته فإنه لا إله إلا أنت السلام..." يدعو في نفسه وهو يقود سيارته وسط ليل سفر طويل ليرى جثمان أبيه لآخر مرة مسجى على فراش الموت، فوانيس العربة تنير طريقه الممتلئ بكلمات الله الحسني المكتوبة كصدقة جارية بطول الطريق تساعده على التذكر واستحضار روح صافية للتقرب من الله والتضرع لقبول دعواته ورجائه.

يشعر بأنفاسها لاهثة جواره ترتجف من وطأة الشعور بالاستثارة، دموعه وحزنه يؤججان شعور جسدها بالجوع الذي يشعل في روحها نار لا تستطيع إخمادها، تربت على كتفيه بحنان بالغ، وتتحرك يدها لأسفل تمسد كل خلية من خلايا جسده بشبق، روحه الهائمة في ملكوت الدعاء تستجيب مع استجابة جسده لموجات الشبق الكهربائية المنسابة من بين أناملها، يترك عجلة القيادة ويلتفت

بكل روحه وكيانه لحالة تواصل اختزلت لأعوام، وجاء وقت تكثيفها على الشفاه.

تستيقظ من نوم عميق على صوت المنبه، تفرك عينيها بيديها الملوثة ببقايا دمائه التي لم تزلها من فوق قلمه الذي وجده المارة نائما في جيبه مخضب بدمائه، الأيام مرت ومعها لحظات وجب تجسيدها وكلمات وجب قولها، تفتح دفتره وتكتب: "شكرا يا حبيبي، بالأمس كنت طفلة أبكي بدهشة وخجل بسبب تمزق سروالي عندما انحنيت لالتقاط فكرة وقعت مني فوق الأرض، ورغم ضحك الجالسين من حولي، إلا أنك لم تعبأ بأحد، أخذتني في حضنك الدافئ وطمأنت قلبي قائلا: لا تخجلي يا حبيبتي فكلنا نجلس في حضرة بعضنا البعض لنخفي مؤخرة مكشوفة".

## حلم الثالث عشر من سبتمبر

ألهث خلف لحظة ملأتني بالشغف لا أذكر من أنا وما هو الرابط بيني وبين الأحداث التي اقتحمت حياتي، ما هي حياتي؟

تمر الأيام ونحن فوقها نطفو كأحلام غافية سرعان ما نصحو داخل أكفان بيضاء. الأرض وحدها تذكر الخطوات، لذلك أغرس قدميّ في كل خطوة أخطوها علّها تترك أثراً. العادية والتكرار إيقاعات فجة تصبغ اللحظات أحيانا بالدهشة، هل أعرف ماذا حدث هناك بالفعل؟، أم من هناك يعرفني جيداً لدرجة أنه لا يراني فأختلط في ذراته كجزء شفيف يتنفسه هو ولا يشعر بي حقا، فإذا ركزت في نفس ما ارتبكت آلية التنفس، ولكنني كنت معك في غفوة حلم واحد، لماذا أنت ولماذا أنا لا أعرف حقا، فأنا وأنت مختلفان كحافتي نهر إحداهما رملية والأخرى طينية ولكن بينها ماء عذب يحفظ وداً غريباً، وإذا التقيا انتهى ذلك الود، فنحن لسنا قطبين مختلفين تجاذبا بالاختلاف، قد نتكامل، ولكن كيف تكملني شفتان رفيعتان كحد سيف إذا مس روحي قسمها..؟

قرأتك في صمت لأتوحد مع مجهول يطاردني، أنت تعشق التغيير

والتبدل فوق أسرة المومسات وأنا أعشق الصباح الصافي الذي يقطر من عيونهن المغسولة بدموع توبة نصوح.

بساطتي لا تناسب تعقيدك الدائم للأمور، كما أنني ممتلئة قليلا بالفرح الذي يتكثف في بسمة أهديها إليك كل مساء وأنت مقطب الحجبين كالعادة تفكر فيما ضاع منك بالأمس. هل تملك الغد؟ هل تضمن لي أنك لن ترحل في الصباح تاركا فراشي مبللا بدموع مومس جديدة؟

الحب كان اختبارا جديدا وفي الحلم خسرته كالعادة، لحظة عانق كل منا الآخر تركنا دون ذنب واضح، فأنت موت مصفى وأنا حياة أنهكتها تعاقب الأيام، فما الذي تعتقده عندما يقابل الموت حياة منهكة؟

أحبك؟

هل تسألني أم تقرر حقيقة واضحة؟

أنا أحب أنني أذبل وأزوى على طرف فمك كابتسامة تحاول الصمود ثواني معدودة ثم يمحوها الألم بقسوة.

نعم أشعر بالبرد فالشتاء قارس الآن وأنت هواء تنفسته فملئت رئتاي واستقررت هناك مانعا دخول نفس آخر، ولكنني الآن ألفظك كنفس أخير وتسكنني كحياة أخيرة..

# اليوم الثاني عشر

هناك لحظة مرعبة تختبئ بين أناملها، التي تحتضن السيجارة باحتراف مدخن متمرس، اعتاد ولوجها وألف روحها الجامحة، تسحب نفس من طرف زاوية فمها بشكل مثير، ولكن لا تدخله إلى صدرها، هو يراقبها بيقين المجرب العارف بالنساء وأنواعهن، من المؤكد أنها لم تدخن من قبل، ولكن لماذا قبلت سيجارته؟، لا يعرف ولا يكترث أيضًا بالمعرفة، هو فقط يتأكد تمام التأكد أن جسدها المغطى من أول شعرها حتى قدميها بملابس فضفاضة وحجاب كبير، يخفى بالداخل روح امرأة شبقة تهرب من شبقها بلعب دور الراهب، الذي مهما تخفى يظهر على جبينه وصمة قابيل القاتلة.

هناك نظرة ساذجة تختبئ تحت تحد واضح في عينيه، هو لا يعرف أنها تحتفظ داخل حقيبتها بسيجارة وردية اللون أهدتها إياها صديقة عزيزة منذ فترة طويلة كدليل على وعيها بازدواجية (الفريسة/ الصياد)، التي تتقنها روح النساء بالفطرة، قبلت سيجارته لأن وجب عليها الآن إغواءه، وشكلها الملائكي لا يكفي لغواية صياد ماهر مثله، تلك السيجارة التي جربت ولوجها مرة واحدة من قبل أمام مرآة عكستها عارية، مما جعل تزاوج السيجارة

والعري فجًا لا يثير، فقررت وضع السيجارة داخل الحقيبة والعري داخل الرداء، وترك روحها تطفو بخجل فريسة تقرر متى تغوي الصياد.

# كهرباء

طعم القهوة العالق على ياقة قميصه يؤكد أن شفتيها كانت تمتلئ بالفضول وهي تفقد توازنها بجانبه في المصعد، لن يصدق مدى التهاب القبلة، التي طبعتها في الهواء فوق أسفل رقبته بعينيها، ولن يستطيع شم رائحة شبقها من تحت جلبابها المهترئ بفعل العرق النازف من مجهود شاق في تنظيف المكاتب والمخلفات، لولا تأخره وضرورة صعوده السريع ما كانت ستحظى هي بتلك اللحظة.

متأفف من رائحة عرقها يلعن ظروف تأخره، التي فرضت عليه الصعود مع مكب للنفايات يدعى امرأة، ولكن حماقته الفطرية تربط عينيه بنظرة لابد من نزولها فوق صدر أي كائن مهما يكن طالما هو في نهاية الأمر أنثى، صدرها يبدو ممتلئا بشكل شهي، لعابه يسيل على شكل موجات توتر في جو مشحون بطاقة غريبة، ينسيه خياله للحظة رائحتها النفاذة فيغرس رأسه بالكلية في صدرها.

# تانجو

تضرب (فتحية) بكفيها على صدرها، وتحدث نفسها بصوت عالٍ: "يا سنة سوخة، ست زبيدة تخلي كلاف البهايم يدخل الدوار؟، لأ ويطلعلها كمان أوضة النوم، دي القطة كلت عيالها يا ولاد، ده اللي بناخده من قلة عقل الرجالة، كان فين عقل العمدة الصغير لما يلوف على بنت خدامينه ويتجوزها ويخليها هانم علينا، ولا هي عشان بنت مدارس تفتكر أن العين هتعلى على الحاجب".

يقترب (سالم) من دوار العمدة، وهو وجل ومندهش من طلب الست (زبيدة)، فعمره الذي شارف على الستين عاما قضى جله في خدمة بهائم العمدة الكبير، ومن بعده العمدة الصغير، ولم يجرؤ أبدا مد قدميه على عتبة الدوار الحلم، فضلا عن دخوله، فهو لطالما تخيل تلك اللحظة المستحيلة، التي ستجعل العمدة يستدعيه ليشاهد ولو لمرة واحدة فخامة الأثاث، الذي تعيره (فتحية) برؤيته وشرف لمسه والعناية به وتنظيفه.

يصعد "الكلاف" العجوز على مهلٍ مهموم يقلب عقله ليسترجع كل كلمة نطقها أو حركة قام بها وكانت سببًا في غضب الست لدرجة أن

تبعث له، يتنحنح على الباب ويطرقه، فتستدعيه (زبيدة) بحنو: "ادخل يا عم سالم"، يدخل ورأسه مطأطأ في الأرض بحياء: "كنت عايزاني يا ست"

تباغته بسؤال غريب "سامع المزيكا دي يا عم سالم"؟

يرتبك سالم: "أيوة يا ست"

تسأله بصوت غريب غامض: "تعرف اسمها"؟

يجاوب بخوف وصدق: "لا والله يا ست معرفهاش"

تضحك (زبيدة) بشكل هيستري، ولا ينتبه (سالم) إلا وهي رافعة جلبابه، وهو ملقى على سريرها تمتطيه بقوة وتحدٍ قائلة: "دي اسمها تانجو كانت موسيقة الغلابة في بلاد برة وسرقها منهم الأغنياء عشان يرقصوا هم عليها، ويحتكروها ليهم، وبعدين يحرموا الرقص ع الغلابة، الغلابة واجب ميفرحوش يا عم سالم".

من المؤكد أنه تخيل دخوله غرفة (زبيدة) فرسة سيده الصغيرة الفتية التي تعد من دور أحفاده، ممدد (سالم) منتشيا بجانب جاموسته المفضلة (بركة)، هل رآها عارية، هل رفعت جلبابه ببجاحة وأخذت ذكره واعتلته بقوة وتحدٍ؟

ذكره مازال واقفًا تجري فيه دماء الخيال دون توقف.

يدخل العمدة الصغير غرفته العاجية تفوح منه رائحة الحشيش والنساء، يجد (زبيدة) مستلقية على بطنها عارية تفوح منها رائحة روث غريبة، نائمة في دعة وهدوء تتقلب وتتمتم باسم (سالم)، شيطان العمدة نصف الغائب يهرول ناحية الزريبة لاهثًا.

تحضر فتحية الفطور وتضعه في "المندرة" تجلس (زبيدة) كالقمر المنير ملكة متوجة على مقعدها أمام زوجها، الذي تلفه هالة العظمة رغم خلجة صغيرة تخرج من عينيه غصبًا، يأتي ولد يافع من بعيد يوشوش (فتحية) بخبر يلف وجهها حزن بالغ، ثم تتعجب وتضرب على كفها مبتسمة، يناديها سيدها: "جرى إيه يا ولية يا خرفانة، مالك".

تمصمص (فتحية) بشفتيها وتحدثه وكأنما تحدث نفسها: "شوفوا يا أخويا الراجل العجوز أبو وش مكشوف، قال أيه غرقان في الترعة وسنه ضاحك وأيده ماسكة بتاعه واقف"!!

# جناح السمكة وذيلها

القطار المتحرك من محطة مصر متجه إلى الإسكندرية، يحمل سعاد إلى مجهول لا تعرفه ولا تعرف أسباب توجهها إليه، فبدلا من عودتها إلى بيت زوجها حملت ابنتها بكتفين متعبتين لا تملك من حطام دنياها غير ثدييها المحملين بطعام الصغيرة البريئة، وعلى فيض الكريم تترك قدميها لطريق لا تملك ثمن الرجوع منه!!

"البت مالهاش إلا بيت جوزها، لمي نفسك وروحي بيتك مش كل يوم والتاني هتتجوزي وتطلقي يا حبة عيني، أبوكي مش ناقص حمل يزيد علي كتافه، كفاية قرف أخواتك البنات مش هنخلص من واحدة ترجع لنا تاني وكمان شايلة حتة لحمة حمرا على دراعها، الست الشاطرة تحاجي على طيرها لا يلوف بغيرها".

تطفر دمعة من عينيّ (سعاد) غصبًا، فكلمات أمها المؤنبة دستور تشربته قطرة قطرة، وحكمة جسدتها أمها من قبل بصبر وقوة ودهاء استثمرته في المحاجاة على عشها وبيتها لسنوات، فهي توقن أنها لا تقسو عليها، هي فقط تذكرها بواقع قلة حيلتها، تعرف (سعاد) جيدا أن غضبتها وانهيارها أمام جسد زوجها الملتصق بجسد جارتها ما هو

إلا "غيرة نساوين فاضية"، في عرف أمها التي حنكتها المحن، وأن التصرف الواجب وقتها كان في أن تحدث جلبة أثناء تحضيرها لأكواب العصير بالخارج حتى يتسنى للعاشقين استعادة رباطة جأشهما، ثم تدخل مبتسمة بصينية العصير!!

القطار يتحرك آخذًا معه سنوات عمرها العشرين وذكرى زواجها مرتين تخللهما طلاق من الأول، وهروب الآن من الثاني بمصاحبة فقر وقلة حيلة من لا تستطيع فك الخط، ولكن قلبها يعي جيدًا مصيرها إذا مشت على خُطى أمها الحمقاء، لسنوات كانت تراقب (سعاد) أمها، أمها التي حسبت حسبتها فوجدت أن الحجر الدائر لابد من "لطه" كما يقولون، وأبيها ما هو إلا حجر دائر على أسرّة الجيران المنتهكة في غياب ذكورها، ففي الحارة القديمة ما يلبس حجر ما من الخروج للدوران من عشه حتى يحط حجر آخر مكانه، وأبوها الأحمق هو الآخر ليس إلا ذكر من ذكور عشش الحمقى "نافشي الريش على مفيش".

هنا الشاطئ خالٍ إلا من (سعاد) الواقفة تحت سماء ملبدة بالغيوم يلفها سؤال هام، ماذا تفعل الآن؟

الجوع يقرص معدتها والصغيرة حلبت ثدييها حلبًا، وبين لحظة وأخرى ستخور قوة قدمها بسبب الجوع والبرد والحزن، والبكاء الذي جفف حلقها من كثرة اجتراره، حتى أنه لم يترك مجالا لشكها في موت وشيك.

هل نصيحة أمها أمر واقع، وجب عليها التكيف معه؟

هي لا تعرف ولا تملك شيئًا، فقط وجه جميل وروح خافتة غارقة حتى أذنيها، في وحل حقيقة مسؤولية طفلة صغيرة لا تقوى حتى على حملها.. فضلا عن تأمين مستقبل واعد لها.

تتأمل بعيدًا، فتتخيل نفسها بجناحين كبيرين تطير بهما وسط سرب "النوارس" المتجه إلى عرض البحر، حيث تملك هناك قدرة فائقة على النزول تحت سطح الماء، ثم الخروج بأسماك جميلة ملونة، تجد هناك دولفين صغيرًا يبتسم لها برقة فتستقر على ظهره وتحوطه بجناحيها، يدخلها عمق الماء فتجد نورًا داخليًا، رغم ظلام ظاهر فوق السطح في الأعلى، وكلما دخلت أكثر رأت أكثر وتوحدت أكثر مع الدولفين، ليصبحا معا كائنًا جديدًا بجناحين وذيل سمكة وخياشيم يستطيع الطيران والسباحة في آن.

يباغتها في لحظة توحدها الداخلي نورس كبير يحط فجأة على الشاطئ يبحث عن بقايا جيف أسماك ميتة، تحتار في تفكير عميق حول إيجاد رابط ما بين قدرته على الطيران، واستمرائه مع القدرة على التقاط الجيف!!

# غرفة مغلقة بإحكام

غرفة مغلقة بإحكام، تئن بالداخل وتهمس باسمي، أضع أذني وكفي الصغيرتين علي الباب، تتوسل: "ناوليني المفتاح من الأوكرة يا حبيبتي، احدفيه من تحت عقب الباب"، أبكي بشدة لأناتها، أحاول بجهد جهيد أن أصل للمفتاح المعلق بعيدًا، فقامتي التي لا تتعدى الأربعة أشبار تثب وثبات عالية، ولكن دون جدوى.

ذكرى قديمة تمر علي خاطري كغمضة عين باهتة، فذاكرتي مفرغة تمامًا من أحداث طفولتي البعيدة لا أذكر سوى بعض التفاصيل البسيطة عن فترتي الإعدادية والثانوية، وكأن ثقبًا صغيرًا بعقلي تسربت منه سنواتي الأولى.

أندهش حينما يختلس إخوتي غفلة أمي ويتهامسون بتفاصيل صغيرة عنها، يقولون: إنها كانت جميلة وتشبهني حد التطابق، فجأة يعلو صوتي وأصرخ عندما ينعتني أخي الأكبر مغيظا "يا شبهها"، تنتبه أمي وتنهره بشدة وعيناها تلمع بدمعة تواريها بغضب، فأبي لم يغفر أبدًا لها أنها تركتها دون رقابة وذهبت لإحضار طعام لي ولأخوتي، هي اطمأنت فقد أوصدت الباب عليها جيدا، ولم تتوقع أبدا أن قامتي

الصغيرة ستصل للمفتاح، لا أعرف حتى الآن كيف وصلت إليه، كل ما أعرفه أنني يومها عتقتها وأسرتني إلى الأبد.

كالعادة أخرج في السادسة صباحًا، ذهابي اليومي للجريدة لم يكن يكلفني سوى نصف ساعة نظيفة من المشي الصباحي الممتع، الشتاء فصلي المفضل، ويوم الجمعة يوم فتح، فلا ترى مخلوقًا في الشارع، أمتلك كل الطرق، غير عابئة بتحذير أمي الدائم: "بلاش تبرطعي وأنت ماشية.. زى الولاد"، أدخل يديّ في جيبي وأستمتع بالهواء البارد، ألمح تجمعًا من الكلاب في آخر الشارع، أبتسم فأنا لا أخشى الكلاب، التي تسير على أربع قوائم، أمر غير عابئة.

كالعادة لا أجد سوى زميلي المناوب ليلا، أستلم منه وأمتلك المكتب وحدي، أحضر كوب شاي بالحليب، وبعض قطع البسكويت، أفطر مع تعليقات قراء الجريدة، التي عادة لا أكترث بقراءة أخبارها، فقط يكفيني العنوان لأخمن التفاصيل، أستمع بشغف لـ" Carmina Burana" أضع السماعة علي أذنيّ، وأنفصل تمامًا عن العالم الخارجي، فقط أنا، شكاوى لا تنتهي، و"فركة كعب"[1] أحلامي

(١)عنوان ديواني الأول

الضائعة المنتهية فوق مكتب كئيب مثقل بتعليقات جنائزية، عويل وخطوط حمراء لا أجرؤ علي تخطيها، وإلا شبح الفصل أو الخصم علي أقل التقديرات، خيال الشعراء يصبح "أسفلت" ساخنًا يمر عليه واقع غرفتي المغلقة بإحكام، ولكن لا أجد بالخارج مفتاحًا ما، أو صغيرة تستطيع الوثب لتحريري.

## نفيسة بنت محمد الطيب

لا أعرف هل حُكيت لي التفاصيل القديمة، أم أدركتها بذاتي وهي جزء أصيل مني؟

أذكر جيدًا أمي طفلة رضيعة ملقاة على حافة المصرف القديم، وأهل قريتي الطيبون يخشونها، فهم يعرفون بعضهم البعض ولا يوجد من بينهم غريب، فمن أين جاءت تلك الرضيعة؟ لا يمكن أن تنشق الأرض وتلفظ صغارًا!

تورد وجه أبي (محمد الطيب) الشاب الخجول الذي أربكه رؤية وجه أمي، فجدتي حنت عليها وربتها في كنفها آمنة، ولم تعتقد أبدا أن ابنة الأبالسة، التي مازالت في مهدها قد بعثت بعينيها سهمًا صغيرًا اخترق قلب ابنها الوحيد اليافع!!، فتدور الأيام وتحول الرضيعة إلى فتاة جميلة تميل رؤوس شباب القرية، ليقف (محمدها) في وجهها حتى يتزوج من تلك اللقيطة، ويترك ابنة أخيها ابنة الأصول الولود، التي أنجبت له نصف دستة من الرجال لتموت ابنة أخيها بحسرتها ليلة زفافه على الحية، فتترك لهما الجدة الجمل بما حمل، وتسكن وحدها جوف جبل (العزيز).

أذكر وجه "الداية" المحتقن بالصدمة عند خروج رأسي من بين فخذيّ أمي سوداء كليل حالك، بعد ستة أشهر فقط من الزواج الميمون، أذكر هلع أبي وهرولته والسكين في يديه يطعن قلبه الطيب، الذي لم يطاوعه على قتل أمي وقتلي.

ما زلت أرى تعثره في الرمال حتى وصوله لحضن أمه، التي احتوته وهي لا تدري أي مصيبة حلت بوليدها وحبة قلبها.

تطبطب عليه وتلقى في جوفه بشربة ماء صغيرة، وتشجعه فيحكي لها مصيبته، وبدلا من امتقاع وجهها المتوقع وشماتتها المفروغ من أمرها، تطير من الفرحة وتسحبه من يده لتجدني قد شارفت على لفظ أنفاسي، التي أطبقت عليها أمي لتقتلني، فتخطفني الجدة من يد أمي الحمقاء وأبي الأخرق، وتؤكد أنني جذر الطيبين القديم، الذي تجسد في الجد الأكبر، وأن النبوءة تؤكد أنه لم يمت فقط ستعجنه الأيام في دوائر الأرض ثم يعود حفيدًا يحمل شكله وينهي بيده لعنة المصرف القديم!!

لن أسامح أبدًا قسوة أمي التي ما زلت أحس بيدها المطبقة على أنفاسي، فألجأ إلى قلب جدتي الرحب، التي لا تكف عن حكي الأساطير المدهشة عن الجد القديم الفارس، الذي سيورثني قوته وقدرته على التحكم في مصائر الناس وأحلامهم، أراقب تعاقب

الأيام وتواليها وانطفاء الحماس وخفوت بريق السحر وانكفاء الحكايات على ذاتها.

هل اندهشت جدتي وتحطمت أحلامها أمام حقيقة الهزيلة الصدئة التي لا تشبه فوارس حكاياتها القديمة؟

هل اعتصرها الألم وعذب الندم روحها على حال ابنها المسكين الذي ضاعت هيبته، وأصبح مطاردًا من أعين تشفق عليه في حسرة، وأخرى تتهكم على "الخرع"، الذي "طرمخ" على زوجته الزانية واعترف ببنوة طفلة ليلية بلهاء حتى لا يكسر قلب أمٍ خرقاء؟

أشعر بالغربة والتوحد مع طين الأرض، أصمت وأنصت لكونٍ موازٍ، أكون فيه نور نهار دافئ يلتف حوله أهل القرية للاحتماء به من برودة الحياة وقسوتها، ثم أنكسر وأنطوي في نظرة كره أمي وقلة حيلة قلب أبي (العلق)، كما يخبرها وهو يعايرها، أراه يذبل ويموت ببطء من الحسرة بعد موت الجدة، فأجد نفسي في الدنيا (غريبة/ قبيحة/ يتيمة) عجوزًا، ولكن في التاسعة من عمرها، ولا يحنو عليا أحد إلا أخي (السيد) الذي لم يتبرأ من قلب أبيه الضعيف، أو جسد زوجة أبيه الزاني، أو عقل جدته الذي خف.

أعيش في كنف أخي في داره كمعجزة حياة وجدت في دارٍ منحوس يقتل قاطنيه، أعيش كمعجزة تؤكد على جمال القبح، الذي تجلى في إعلانه وإصراره على البقاء، مهما صعبت الظروف.

المساء أتى وقد حكيت تفاصيل خيالاتي الحزينة، حكاياتي التي تبدلت فيها لأهرب من وحدتي، ولكني –صدقا- قد خبأت في كل حكاية جزءاً ما من ذاتي التي أتعرف عليها..

أبي لا تغضب مني سأسر إليك بسر موجع، رحيلك جاء في وقته، فأنا كنت أحتاج لتلك الوحدة التي تكبلني حتى أكتب كل ما كان وسيكون بيننا دون ملل، فما مر لم يمتلك حلاوته إلا بفقدك، الفقد جمّل الذكرى وجعلها خضراء، لن أهرب مني مجددا سأحكي لك بصدق عن نفسي، التي لم تقابلها من قبل دون مزيد من الخيال والخجل، لم يبق هناك مكان للاختباء..

(٣)

# يختفي الطوق ويبلى الحذاء

# عنبات أبي العزيزات

خمس عنبات بفم والدي- رحمه الله- أطعمته إياها عن طيب خاطر في منامي، الساعة الخامسة صباحًا، والدائرة تبدأ في الدوران، أتوضأ وأصلي ثم أفرد روحي تحت ملابسي، أحمل ابنتي الصغيرة على كتفي المتعب، أنزل ثلاثة أدوار، وأسير بمحاذاة الحلم، فأتعثر في كومة القمامة الملقاة على أول الشارع، جِدِّة ابنتي تسكن في طريقي إلى العمل، ولكن على ارتفاع سبعة أدوار كاملة، أتخفف من حملي الصغير من كتفي إلى كتف الجدة، وأطير إلى عملٍ أمارس فيه حقًا رقابيًا على أحلام البسطاء (أحذف.. أحرر.. أنشر) ما يحلو لي وفق المنظومة.

بكامل إرادتي أترك في فمه العنبات، أطعمه من روحي وأسقط فوق الأسفلت، أترنح في طريق العودة، ولا أنسى المرور على سوق الخضراوات، أحمل الأكياس التي ملأتها بالملل والتعود والإنصات إلى "طماطمي" العزيزة الحمراء، أعود إلى الصعود حتى دوري السابع، ألتقط الصغيرة من فوق كتف الجدة إلى كتفي، وأحمل بالكتف الأخرى إجهادًا وصداعًا خفيفًا، أعود من نفس الطرق، ولكن لا أصل إلى مبتغاي، فقط أصل إلى سلالم بيت أصعدها بأثقال وأتربة

وابتسامة، أحملها كوشم على شفتي، أفتح عليّ باب حلمي الصباحي، وخيال والدي وعنباتي الصغيرات يتأرجحن بين عينيّ الصغيرتين، أبدأ ملحمة طبخ مع تدليل الصغيرة، حتى لا يزعج صوتها روح زوجي المنهكة هي الأخرى بفعل الإجهاد والعمل...

نأكل مع موسيقى عمر خيرت، أو حلقة من مسلسل قديم، أو برنامج نتشارك دائما في مشاهدته، نتناقش حول أحداث يوم العمل، ودّ حقيقي يسكن روح الحياة لكنه مختبئ. في كل قضمةٍ نلوك أحلام تتساقط داخل معدة خاوية، نحولها بفعل زحام وتكدس المواصلات غير الإنسانية، والعمل المنقوص إلى فضلات نلفظها بتعسر وخوف، فالدوائر المغلقة تصبح أكثر اتساعًا فوق شفتيه المبتسمتين وإطرائه الدائم:

"تسلم أيدك يا حبيتي معلش تعبتك معايا"،

"ربنا يخليكي يا حبيتي، إيه القمر ده"،

مع قبلة خفيفة على خدي وقت وقوفي محاذاة الحوض أغسل الأطباق المتسخة، رغم هيئتي غير المهندمة أمامي في مرآة لا تعكس أية مظاهر لجمال!!

يذهب زوجي إلى المكتب في المساء، فأرتب نفسي داخل زوايا المنزل، أُجفف بالغسالة ثم أَتراص فوق الرف وسط كومة ملابسي، أُجَمّع فوق الجاروف وأُلقي داخل سلة المهملات، جاء وقت تحولنا إلى أكياس صغيرة سوداء تربط بعناية ليحملها زوجي يوميا إلى مكب النفايات.. ولكن بعد الانتهاء من الترتيب تصحو الصغيرة، التي تريد اللعب واللهو فوق بقايا روحي المنهكة، فتلقى الجميلة تجاهلا لا يلق بعامين، تجاهلا ينتج عنه بكاء مرير أثناء نومها ليلا، أصحو لأحملها فوق نفس الكتف المنهك، أهدهد الجميلة حتى تعود للنوم، وأعود أنا الأخرى إلى عنباتي العزيزات...

# تابو

المساحات الخضراء، التي تتيحها الأوراق والأقلام قد تخبئ ما لا نتوقع، تحاول كتابة أحلامها المحققة وغير المحققة، ولكنها تجد داخل روحها ثقبًا لا يبحث عن الأحلام، يبحث عما تكون عليه حقا. تحت السطح تتكاثف طبقات من الذوات المختلفة، تكتب فهي بحاجة إلى التواصل مع عالم هناك تحبه وتخشاه في آن، تكتب لتحترم ما هي عليه دون مواربة حتى إن كان في نظرهم مسخا مشوها بالتباس وتشابك الصراع المحتدم بين ذوات مازالت تبحث عن بوصلة تهديها لموطن تناغم تحصل فيه على السلام.

دموع تختلط بالكلمات هي أول ما سكبت روحها على الورقة لتطهر جرحًا غائرًا داخل طفلة تباعد الحكيمة بين ساقيها لتشذب غرائز لابد أن تتفتح (**ستفتح عينيها على محرمات من الواجب غلق بابها حتى تظل الصغيرة بريئة..**) الجرح غائر عميق، عمق الأيام التي مرت وغيرت ملامح وجهها وجسدها، بعد مرور ثلاثة وثلاثين عامًا قضت آخر أربعة أعوام منها زوجة وأم، تكتشف أنها تعاني من هوة ما بين روحها المحبة وجسدها الشحيح الذي يشعرها بالخزي كونه جزء من هوية رسخ في ذهنها الطفولي لحظة التشذيب أن احتياجاته وغرائزه

تحط من قدرها وقدر روحها الطيبة، الطيبون يتناسلون دون غرائز.. مؤدبون ليس لديهم براكين تتصارع تحت السطح، يمتلكون أجهزة وتراكيب تساعد على استمرارية الحياة، فهم خلفاء الله في أرض وجب عليها البقاء.. رغم عنها تختنق الآن.

**.. لا، لن أتراجع،** (تقول في نفسها..)

**أشعل أناملي**.. أحكي لأنير النفق المظلم هناك، أريد الرؤية أجمّع العظام المتكسرة، أشعر ألم الاحتراق، رائحة الشواء تذكرني بفرخ بط قبيح ألف مفهوم الاختلاف والوحدة، التي توجب الاحتماء أكثر بجدران الروح، الروح تصلي تتطهر تجوب ملكوت علوي وتحتقر جسدًا لم ينحت كالمقاييس العالمية للجمال المعلب، جسدا صمم للجنوح عن السائد والمتعارف عليه من حياء يشوه روحي، العالم الذي أعرفه علمني كبح حقي في الارتواء من الخطيئة.. أنا لست امرأة العزيز.. لن أغوي يوسف، ولكنني أيضا لم أكن البتول.. لا أملك ناصية الحكايات كشهرزاد ولست جارية ذكية من جواري لياليها، هنا في هذا العالم، أنا غير مرئية، لست جزء فاعلا من الحكايات، الحكاية تريد بعض الأحداث المشوقة، القطة التي تسند رأسها عند قدمي الآن تعتقد أنني المقعد، فتسند رأسها إليّ بفعل العادة، فأنا والمقعد قطعة ديكور يجلس فوقها الأبطال الفاعلون في

المشهد، بتعاقب الأيام نلقى في (القمامة/ الجبانة) الأمر سواء، مادمنا سعداء بقدرتنا على مشاركة العالم.

كيف نختصر العالم في الكلمات؟
نبعث شرارة التجربة ورائحة احتراقنا داخلها؟
نرسل للعالم إشارة تميز موقع هبوطنا من السماء؟
ولكن، ما هو العالم، هل هو ما نعرف، وهل ما نعرف هو ما نريد؟
هل نطيب مع البوح، أم نفتح على أرواحنا أبوابا لا نهائية من الازدراء وعدم القبول من محيطنا الذي يبدأ من أنفسنا؟

محتجزة داخل صندوق نفسي منذ ولادتي، لا أسمع أحد، وحدي أبحث عن سحر الوحدة، وأسأل بشغف طفلة تريد أن تعرف، هل يحتجز الجميع مثلها؟

لا يوجد أمر مؤكد الآن غير أنني أريد الاحتراق، أكافح لأتواءم مع رائحة الشواء وأبتسم لحظة ظفري عظمة جديدة طمرتها مرارة التجارب في ثنايا الروح بين الخوف والجهل والحزن والبراءة، أعتصر اللحظة وانسكب على سطح الورقة المبللة، التي ألقيتها منذ قليل في سلة المهملات، روحي طويت كثيرا بين سطور لم ولن تقرأ من فرط

العادية والسذاجة، تمر عليهم فينظرون ويتعجبون ويقتلون الورقة بحثا عن العنقاء، التي ستقوم من رمادها أقوى، إلا أن العنقاء أسطورة أنثوية داخل عقلي تُحرق مثلما تُحرق أناملي هي لم تكن طائرا من قبل لذا لن تتجدد، الوقت ينفذ والأنامل تذوب فتخفت قدرتي على السكب والتمزيق والتكدس وسط النفايات، الدموع لا تطهر الجراح الجديدة فقط تحفر بئرًا عميقة من الحزن..

# بمحاذاة النهر

لا تملك تذكرة دخول العرض العائم معه، هو يتأبط ذراع شبح جميلة سكنت الحواديت عند مصب النهر، وهي من بعيد تراقب أحلامها المتكاثفة فوق شفتي الفتاة المنتظرة، لم يكن (لويجي)[١] كما ألفته من قبل، صوته ينساب وحيدا.. شجيا.. يقول لها: " ho capito che ti amo"[٢] ، كان هو ولم يزل في نفس السن تقريبا (٢٨) عاما، لقد تخطته الآن بأعوام خمسة..

فيما مضى لم تفهم الكلمات، ولكنها الآن أدركت الروابط الخفية بينهما، شعرت أنها تحبه، ولكن أوان إدراكها قد فات، لم تؤمن وقتها بتلك الشرارة الخاطفة، التي اشتعلت داخلها، هو يغني لها وحدها، تعرف الآن أن عليها قتله لأن بقاءه من دونها مستحيلا، يعتقدون أنه انتحر بالرصاصة، التي اخترقت صدغه، وإنها كانت

---

(١) Luigi Tenco مطرب وملحن إيطالي كان خطيب المطربة داليدا وتوفي منتحرا يوم ٢٧ يناير ١٩٦٧.

(٢)عنوان أغنية لLuigi Tenco ومعناها (أدركت أنني أحب).

اعتراضا منه على إخفاقه في المسابقة الغنائية (هذا كذب..)، الرصاصة خرجت من قلب أيام تقف الآن بموازاة أيامه على ضفة أخرى في زمن آخر، حزينة ووحيدة مثله تماما، جذوره تطفو فوق سطح الماء، تتبخر لتعيد تشكيل حياتها في سنوات مقبلة، دموعه حُجبت واحُتجزت من أجلها وحدها في مساحة شفافة لا ترى، (دليدا)* لم تدخل لتكتشف الجثة الهامدة، ولا تحاول الانتحار حزنا على رحيله، بل تحاول الانتحار لاكتشافها خيانته إياها مع تلك الفتاة، المنتظرة على ضفة نهر النيل، فتاة ليست من (شبرا) ولم تكن أبدا ذات صوت جميل، تكتب الرسائل للسماء لأن كل أحبتها رحلوا وتركوها تطفو فوق الكوبري العتيق، ترسم القلوب الخاوية تارة وتمسحها بدموعها تارة أخرى..

"**الشيب بدأ يزحف** (لويجي) فوق شعري بشراسة وأنت مازلت وسيما ويافعا، مع الوقت (**أدركت أنني أحب**) مثلك تماما، أعتذر فلم أقصد بالرصاصة موتك لأشوه الجمال؛ أنا أردت تجميد اللحظة حتى نلتقي في المنتصف هنا، أعرف أنك الآن تغني لي جانب النهر، وأنا أسمع بشغف صغيرة تبكي عندما تصرح لها بأن إدراكك جاء بعد فوات الأوان، أنت تجتر الذكريات المتخيلة عني وأنا ألتقط الطيف القادم منك، نبكي معًا فترقص كل دمعتين فوق سطح الماء، تتبخران

وهما متعانقتان كقطرة واحدة ذات بال، فدمعة الانتحار لم تكن أبدا صخرة مترسبة في قاع الماء، بل كانت ومازالت جزءًا من كيان النهر الباقي مادامت الذكرى تقف بيننا بمحاذاة نهر كل منا هنا وهناك.. لن أسمح للشيب بالزحف، وسأقبل الرصاصة التي تخترق الآن قلبي بعدما اخترقت صدغك كهدية، تضيف للنهر حكاية وللهواء معنى وللأيام لحظات متجسدة".

# رغم كل شيء

تذكر نفس المقعد القديم، الذي جلست عليه ذات يوم بعيد، تحاول رفع أصبع يدها مع كل إجابة تعرفها أو لا تعرفها، لتلفت انتباه المُدرسة لمن تناضل من أجل التحقق.. ترضى بكل شيء رزقها الله إياه، لا تبكي كسرات الخبز، التي تعطيها إياه الأم صباحًا، أو حتى تفتقد حقيبة الأقلام الصغيرة، التي رغبت في الحصول عليها ذات يوم لتحفظ داخلها بقايا الأقلام المتكسرة، لم تكن هناك مِحاة للحزن أو للحظة اللا شيء، التي تغلف الفصل.. المقعد.. المريلة المتهرئة، والدها –السائق- المُجد يموت بعد غرس محبة المعرفة داخل قلبها الصغير، هي ترث عين أبيها الضيقة، تحاجي بها على الحلم.. الكل يحصل على درجات نهائية، هل درجات نهائية مع ملابس رثة قد تعكس التقدير؟ المُدرسة تنتبه جيدًا لنوع الحذاء المتآكل، في الفصل آخرون أكثر ذكاء مع امتلاكهم لأحذية جديدة لا تدل على تواضع المنشأ، أو لقمة مختلطة بعرق ما.

تذكر أيضا أنها لم تحبه لوسامة أو جاه أو مال، أحبت كونها جميلة ومحبوبة وجديرة بالاحتواء من قبله، الصفعة التي حفرتها أنامله فوق خدها الآن لم تؤلم الجلد المطبوع فوقه صورة الأنامل المحتقنة،

القسوة كانت لحظة شعورها رفضه إياها.. هو رأى بعين المُدرسة، لاحظ الدهون المتراكمة فوق الفخذين الثقيلين والنهد الذابل بعد فطم الصغيرة، مثلما لاحظت المدرسة الحذاء المهترئ.. لم يلاحظ كليهما شبقها لمحبة خالصة كونها ضعيفة حمقاء تواقة للحب والتقدير، تمتلك سذاجة وبراءة كافية لاختيار الجانب الخير هناك، حيث يوجد القبح.. تروض مكامنه.. تبدو قبيحة شيئا ما.. أو حتى لا تكفي بذاتها ولذاتها.. هي لا تكفي على الإطلاق.

تستقبل كل صباح مع لحظات صفح وطيبة تغلف العالم الذي تحب، ولكن.. هل يتميز صباح ما بذاته؟
تتلقى الصباح على أنه واقع حتمي، كيف تميز هذا الصباح بالذات عن تلك الصباحات الأخرى، التي مضت، أو التي لم تأت بعد؟
كلهم سواء عند من لا يقدرون هبة اليوم المفرد بذاته، رغم العادية البادية عليه فهو جديد، لن يتكرر، كذلك تشعر بالعادية، التي لن تتكرر.. بأرض لن تُطأ مجددا، ببصمة وحيدة.. الإنسانية تتكدس بالبصمات، مثل الأعوام المتكدسة بالأيام، هل تدرك الأعوام فرادة اليوم العادي وتميزه؟ هل يدرك عام ما أنه غير مكتمل بفقد يوم من أيامه؟

هل هي ذلك اليوم، الذي ستفتقده الأعوام رغم عاديته وبساطته، رغم مرور الشمس عليه مرور الكرام، رغم الصفعة وقسوتها على الخد؟!
هوت صفعته بقوة وهي لا تعرف حقا، هل كانت هناك.. تشعر.. تتألم.. تحب؟
هي بلا إضافات، مجرد ملح طعام جائع واحد، مثل صباح يوم واحد، هل إدراكه من عدم إدراكه سيفرق شيئا؟
ترتبك وتتلعثم وسط جمع مشرق بالتقدير والتحقق منكفئ على ذاته، يبدون أكثر اتساقا بدونها، تبدو أقل خبرة ومنزلة، عن ماذا ستتحدث؟!
هل تتحدث بشغف عن الأطباق، التي يعلوها التراب بالمنزل ولا تجد الرغبة في إزالته من عليها؟ لا يعبئون بها وبالأطباق المتربة، لا يفتقدونها مثلما لا تفتقد هي الأطباق، التي بحاجة إليها رغم كل شيء.

## لا ينقصني شيء

لست حمقاء بما يكفي لتصديق أن المشكلة كانت في إيجاد غرفة خاصة أحفز بها روحي المنهكة على الاسترسال، أية دهشة تسكن الأركان؟ الغرفة الوحيدة التي يسكن داخلها الجميع لا يوجد بها زاوية خاصة لي، حتى الحمام الواحد الذي يتقاسمه الجميع أجلس على مقعده وأمد قدم بالخارج تعوق الباب فلا ينغلق أبدا.. **لا تجزعي** فالحقل الأخضر القديم أكله الجراد، وأنتِ الثور الذي خلع عينيه طواعية وبدأ في جر الأيام في دوائر مفرغة من الحلم، هل تذكرين المنزل الذي يسكنه الموتى، أبي الموتى يمرون عليا وأنت لا تأتي، هل ما زلت ابنتك الصغيرة المدللة، أم غيبك الموت في سماء لا تراقب الأحباء؟

أبي أنا هنا أذكرك كل يوم بحزن بالغ وأسى، فالحياة غربتي التي علقت بها ولا أملك القدرة على الفكاك منها، ابنتي أخشى ضمها حتى لا تفتقد حضني مثلما أفتقد حضنك الآن، هل أخبرتك أنني بحثت عن الغرفة غير المرتبة، التي طلبت مني البحث عنها وترتيبها؟ نعم بحثت عنها، ولكنها مختبئة في مكان لا أعرفه، يا ربي هل تخبر أبي

أنني حزينة أبحث عن الغرفة ولا أجدها؟، هل تخبره أنني أفتقد زيارته في منامي ليرشدني إلى الإجابة الصحيحة في الامتحان؟

لم أزر قبرك فعليًا سوى مرتين، ولكنني أزورك يوميا، أحاول الدخول إلى أحلامك، وأتوه في مدن عقلي المزدحمة، أبحث تارة عن حذائي المفقود، وتارة أخرى عن ثياب مناسبة للرحيل، دائما أبحث ودائما هناك امتحان، لا أبلغه أبدا، وغرف متكدسة بالظلال وأنت لا تبتسم لي. أنا يا أبي لا تبتسم لي؟، هل هذا ما اتفقنا عليه أن تتركني وحيدة أبكي مثل طفلة بائسة في حياة لا تعبأ بالبؤساء اليتامى ولا تعرف أنني أبكي؟
كل التفاصيل التي كانت بيننا ذات يوم هربت. الآن أفتش عن الذكريات فأجد عقلي مثل طبلة خاوية تأن بصوت عالٍ غير مفهوم، الطبلة تسد عليا مدارك الإحساس، والإيمان، هل أخبرتك أنني أصلي يا أبي، هل أخبرتك أنني أحفظ القرآن، أنا طفلة طيبة يا أبي تريد دخول الجنة، فأنت تحب الجنة يا أبي، أتحب الجنة حقا؟ هل رأيتها؟

أبي لا أستطيع ركوب القطار قبل الموعد ولا أعرف موعد الوصول أعرف فقط أنني لا ينقصني شيء إلا رؤياك.

## المحتويات


في انتظار جنية الحواديت الطيبة ..... ٥
جنية الحواديت الطيبة ..... ٧
أيقونة ..... ١١
سر الفستق الأحمر ..... ١٣
حكاية الوزغة الإنسية ..... ١٧
ضوء القمر ..... ٢٣
كابوس الحكاية ..... ٢٥
حكاية "ألفباء" ابن "ياكوش الأحمر" ..... ٢٩
حكايات الخبز البائت ..... ٣٧
تواصل ..... ٣٩
حلم الثالث عشر من سبتمبر ..... ٤٣
اليوم الثاني عشر ..... ٤٧
كهرباء ..... ٤٩
تانجو ..... ٥١
جناح السمكة وذيلها ..... ٥٥
غرفة مغلقة بإحكام ..... ٥٩
نفيسة بنت محمد الطيب ..... ٦٣

يختفي الطوق ويبلى الحذاء..... ٦٧
عنبات أبي العزيزات ..... ٦٩
تابو..... ٧٣
بمحاذاة النهر..... ٧٧
رغم كل شيء..... ٨١
لا ينقصني شيء ..... ٨٥